الفصل الثالث

مسيحيون فى تاريخ مصر الإسلامية

لم تكن مصر بعد الفتح الإسلامى بلدا للمسلمين وحدهم، كان المسيحيون أيضا شركاء، وبرزت منهم أسماء لا يمكن لمن يقرأ تاريخ هذا البلد أن يمر عليها دون أن يقف عندها متأملا فى المعنى والدلالة التى يمثلها كل منهم، ومن الضرورى أن نتحدث عن مجموعة من هؤلاء الأعلام للتذكرة.

الأب بنيامين

الأب بنيامين هو بطريرك النصارى الأرثوذوكس فى مصر عند الفتح الإسلامى، ويذكر التاريخ أنه حين جاء المسلمون إلى مصر للفتح كان هذا الرجل العظيم فارا بعقيدته من الرومان، فمن هو هذا الرجل؟ وماهى قصته مع المسلمين، ومع الرومان من قبلهم؟ ومع الفرس قبل هؤلاء وأولئك؟

كانت مصر فى أوائل القرن السابع الميلادى فى أسوأ حال. ترزح تحت نير الاحتلال الرومانى. وحدث أن اشتد الصراع التقليدى بين الفرس والروم. فقررت فارس توجيه ضربة قاسية للرومان فى مستعمراتهم بالشام ومصر، وسقطت مصر فى يد المحتل الجديد عام ٦١٨ لميلاد المسيح.

وظلت تحت حكمهم لمدة عشر سنوات حتى تمكن الرومان من استعادتها مرة أخرى.

وبرغم أن الرومان كانوا يدينون بالديانة المسيحية مثل أقباط مصر، إلا أن الخلاف المذهبى بين الطرفين كان أشد من الخلاف بين أى طائفة منهم وبين أتباع أى دين آخر.

ونظرا للخلاف العقائدى الشديد بين الطوائف المسيحية فقد عقد الرومان مجمعا فى خلقدونية عام ٤٥١ للميلاد، بدون البطريرك المصرى، وأصدر المجمع قرارات تدين الكنيسة المصرية، ورأسها ديوسقوروس بالهرطقة[1] وبدلا من أن يقوم هذا المجمع بالتقريب أتى بنتيجة عكسية، حيث رأى المصريون أن ما أقره هذا المجمع هو الكفر عينه، ومن هنا فقد رفضوا الاستسلام للمذهب الجديد، وأمام هذا الرفض «فكر الإمبراطور هرقل فى حيلة يضم بها كنيسة مصر قسرا إلى كنيسة الروم، فصاغ هو ورجاله مذهبا وراح يفرضه على جميع الولايات الإمبراطورية بما فيها مصر، فأطلقوا عليه مذهب الملك، أو المذهب الملكانى»[2].

واختار الإمبراطور هرقل رجلا شديدا من أتباعه يسمى «قيرس»، وجمع له السلطة الدينية «البطريركية» مع السلطة المدنية فى مصر، وهذا الرجل لدى كثير من المؤرخين هو المعروف فى كتب التاريخ الإسلامى بـ «المقوقس»، وتروى المصادر المسيحية أن هذا الرجل كان حربا على أهل مصر لاختلافه

(١) د. إسحق عبيد: شمس العرب تسطع على أرض النيل (بحث ضمن كتاب: أثر الإسلام فى مصر وأثر مصر فى الحضارة العربية الإسلامية)، القاهرة، ١٩٩٩، ص ١٣.

(٢) البحث السابق: ص ١٥.

معهم فى المذهب، ولذا كرهوه وتمنوا الخلاص منه. وذكر باتلر فى كتابه «فتح العرب لمصر» نماذج مفزعة لهذه الفظائع التى ارتكبها هذا البطريرك الحاكم الرومانى، حتى مع ميناس أخى الأسقف بنيامين، قال:

«كان أخو بنيامين ممن عذبوا ثم قتل غرقا. وكان تعذيبه بأن أوقدت المشاعل وسلطت نارها على جسمه، فأخذ يحترق حتى سال دهنه من جانبيه إلى الأرض، ولكنه لم يتزعزع عن إيمانه، فخلعت أسنانه ثم وضع فى كيس مملوء من الرمل وحمل فى البحر حتى صار على قيد سبع غلوات من الشاطى، ثم عرضوا عليه الحياة إذا هو آمن بما أقره مجلس خلقدونية، فعلوا ذلك ثلاثا وهو يرفض فى كل مرة. فرموا به فى البحر فمات غرقا،... ولكنهم لم يقهروا ميناس الذى مات شهيدا بل قد غلبهم هو بصبر الإيمان المسيحى[1].

وقال فى موضع آخر يروى تعذيب صمويل القلمونى أحد رجال الدين المسيحى من المصريين:

«... أن البطريق (قيرس) جاء إلى الدير فوجده خلاء ممن فيه إلا من خازنه، فقبض عليه وجلده وأخذ يسأله فقال له الخازن:

– لقد جمع صمويل الزاهد رهبان الدير وخطب فيهم فأطال ووصفك بالكفر وبأنك يهودى من أتباع خلقدونية، ولا تؤمن بالله. وبأنك لست أهلا لأن تقيم الصلاة، ولا أن يعاملك المؤمنون. فلما سمع الرهبان قوله هذا هربوا قبل مقدمك.

(١) الفريد ج باتلر: فتح العرب لمصر (ترجمة فريد أبو حديد) القاهرة، ١٩٩٩، ص ١٦٣.

فلما سمع الكافر الفاسق ما قاله الخازن ثار ثائره وعض شفتيه من الغيظ وسب الخازن والدير ورهبانه ومضى عنه....فرجع الإخوان إلى ديرهم آمنين، وأما الكاوخيوس (المقوقس) ذلك البطريق الدعى فقد ذهب إلى الفيوم والغيظ يأكل قلبه، ودعا هناك أصحابه وأتباعه وأمرهم أن يأتوا له بالعابد الأنبا صمويل مكتوف اليدين من خلاف، وأن يضعوا فى عنقه طوقا من الحديد، وأن يدفعوا به كما يدفع باللصوص. فذهبوا إلى الدير الذى كان فيه وقبضوا عليه.

وذهب صمويل مستبشرا فى صحبة الله، وهو يقول: «سأمنح إن شاء الله اليوم الشهادة بأن يسفك دمى فى سبيل المسيح»، ثم جعل يسب المقوقس لا يخشى شيئا.وأدخله الجنود عليه فلما رأى المقوقس ذلك الولى أمر جنده أن يضربوه حتى سال دمه كما يسيل الماء ثم قال له:

– صمويل أيها الراهب الشقى. من ذا أقامك رئيسا للدير وأمرك أن تعلم الرهبان أن يسبونى ومذهبى؟

فقال له العابد الأنبا صمويل:

– إن البر فى طاعة الله وطاعة وليه البطريق بنيامين وليس فى طاعتك والدخول فى مذهبك الشيطانى.

وقصارى القول إن ذلك الكافر أراد أن يقتل الولى ولكن حاكم الفيوم خلصه من يديه فلما رأى قيرس أن صمويل نجا منه أمر به أن يطرد من جبل نكلون»[1].

(١) فتح العرب لمصر: ص ١٦٤ – ١٦٥.

فـى ظل هـذه الأوضاع المضطربة عـاش الأب بنيامـين، وأمام هذا التعسف والظلم البيزنطى فر الرجل المؤمن بعقيدته، واختفى ثلاثة عشر عاما فى دير صغير فى الصعيد بعيدا عن عيون وأيدى خصومه.

وقبـل أن نذكـر قصة الأسـقف بنيامين يجـدر بنـا أن نقف عند تاريخ حياته:

– ينتمى بنيامين إلى أسرة قبطية موسرة من قرية فرشوط فى البحيرة (وهى غير فرشوط الموجودة بالصعيد).

– فـى عام (٦٢١) جاء إلى ديـر قبريوس وهو من الأديرة القريبة من الإسـكندرية التى نجت مـن تخريب الفرس، وترهب على يد رئيسـه الشيخ تيوناس.

– كان نابغا فى العلم، مخلصا فى العبادة، حتى إنه كان يقوم الليل فى العبادة فى كنيسة الدير.

– جـاءه هاتـف ذات ليلة أثناء قيامـه وأخبره أنه سـيكون راعيا لأتباع المسيح، ولما علم شيخه بذلك نصحه بأن يحذر الشيطان، وأخذه معـه للبطريرك القبطى (أندرو نيكوس) فى الإسـكندرية. فأعجب به، واسـتبقاه معه وجعله أمينه وصاحب ثقته، ومسـاعده فى تصريف أمور الكنيسة وأحوال ولاية الدين.

– لم يلبث أندرونيكوس أن توفى بعد حوالى ثلاثة أشـهر من صحبة بنيامين له، لكنه برغم قصر مدة إقامة بنيامين معه رشحه لخلافته، وصعد بنيامين لمقعد البطريركية وهو شاب صغير فى حوالى الخامسة والثلاثين.

وكان ذلك عام ٦٢٢ تقريبا. أى أثناء حكم الفرس الذين رحلوا عن مصر فى ٦٢٧/ ٦٢٨.

– جاء قيرس إلى مصر عام ٦٣١ أى بعد خروج الفرس، وأيقن بنيامين أن قيرس لن يفعل ما ينفع أقباط مصر، فنظم أمور الكنيسة، وحض القسوس على الثبات على عقيدتهم، ثم كتب إلى أساقفته يأمرهم بالهجرة إلى الجبال والصحارى حتى يرفع الله عنهم غضبه، ثم اختفى.

– أرسل قيرس رجاله يبحثون عن بنيامين فى كل مكان لكن الرجل كان لا يبقى فى مكان، مماجعل الوصول إليه صعبا.

ومرة أخرى نعود لسياق حديثنا..

دخل العرب بقيادة عمرو بن العاص مصر مطلع العام التاسع عشر للهجرة النبوية، الموافق لبداية عام ٦٤٠ للميلاد، ويذكر ابن عبد الحكم فى كتابه «فتوح مصر والمغرب» عند حديثه عن المواجهة الأولى بين الجيش الفاتح وبين الروم فى الفرما «أن الأسقف الجليل» كتب إلى القبط يُعلِمهم أنه لا تكون للروم دولة، وأن ملكهم قد انقطع، ويأمرهم بتلقى عمرو فيقال إن القبط الذين كانوا بالفرما كانوا يومئذ لعمرو أعوانا[1]».

وبعد أن انتهى عمرو من فتح الإسكندرية جاء إليه رجل قبطى من قادة الروم اسمه شنودة، وحدثه عن أسقف القبط، وبعد هذا جاء عدد من الرهبان للقاء عمرو بن العاص، وأظهرو له الطاعة، فأعطاهم كتاب أمان للأسقف المختفى، ولأنهم لم يكونوا يعرفون مكانه بالتحديد فقد

(١) فتح العرب لمصر: ص ٨٦.

أطلق عمرو المنادين فى أرجاء مصر ينادون الأسقف المختفى لكى يعود. ونص عهد الأمان:

«أينما كان بنيامين نعده بالحماية والأمان وعهد الله، فليأتِ البطريق إلى هاهنا فى أمان واطمئنان ليلى أمر ديانته ويرعى أهل ملته».

وبعد هذا العهد ظهر الرجل من مخبأه، وجاء إلى عمرو فى الإسكندرية، ويصف باتلر فى كتابه «فتح العرب لمصر» هذا اللقاء كالتالى:

«ولما أبلغ شنودة عمرو بن العاص مقدم بنيامين أمر عمرو بإحضاره إليه، وأمر بأن يقابل بما يليق به من الترحاب والتكريم. وقد كان بنيامين ذا هيئة جميلة تلوح عليه سيماء الوقار والجلال. وكان عذب المنطق فى تؤدة ورزانة، فكان لذلك أثر عظيم فى نفس عمرو حتى قال لأصحابه:

«إننى لم أر يوما فى بلد من البلاد التى فتحها الله علينا رجلا مثل هذا بين رجال الدين»[1]

أما يوحنا النقيوسى فيقول:

«ودخل الأنبا بنيامين بطريرك المصريين مدينة إسكندرية بعد هربه من الروم فى العام ١٣، وسار إلى كنائسه وزارها كلها. وكان الناس يقولون: هذا النفى وانتصار الإسلام كان بسبب ظلم هرقل الملك وبسبب اضطهاد الأرثوذوكسيين على يد البابا كيرس. وهلك الروم لهذا السبب وساد المسلمون.

(١) فتح العرب لمصر: ص ٣٨٢.

وكان عمرو يقوى كل يوم فى عمله، ويأخذ الضرائب التى حددوها. ولم يأخذ شيئا من مال الكنائس، ولم يرتكب شيئا ما، سلبا أو نهبا، وحافظ عليها طوال الأيام»[1].

وفى عام ٦٦٢ لميلاد السيد المسيح توفى الأسقف بنيامين بعد حياة حافلة بالجهاد، ويذكر ساويرس بن المقفع، وهو من أهم مؤرخى الكنيسة عن بنيامين إنه قال بعد عودته للإسكندرية:

«كنت فى بلدى وهو إسكندرية فوجدت بها أمنا من الخوف واطمئنانا بعد البلاء، وقد صرف الله عنا اضطهاد الكفرة (يعنى الرومان) وبأسهم[2]».

إن الأسقف بنيامين هو أول شخصية مسيحية يقف عندها التاريخ الإسلامى فى مصر، وهو رجل جدير بأن تعرف سيرته الأجيال الجديدة، لتعرف من خلال قصته كيف بدأ التاريخ الإسلامى على أرض مصر فى ظل موقف يدل على احترام كل دين من الدينين السماويين للآخر منذ اللحظة الأولى للقاء على أرض هذا الوطن.

الرجل الذى سبق ابن الأكرمين

لا أحد يعرف اسمه، ولا سنه، ولا أسرته، لكنه برغم هذا استطاع أن يدخل التاريخ الإسلامى لمصر برغم أنه مسيحى.

---

(١) يوحنا النقيوسى: تاريخ يوحنا النقيوسى (ترجمة د. عمر صابر عبد الجليل) القاهرة، ٢٠٠٠، ص ٢٢٠.

(٢) فتح العرب لمصر: ٣٨٦.

لا شـك أنه كان فارسـا، من أبناء الطبقة العليا، فلا يسـتطيع أن يخالط أبناء الحكام إلا أبناء الطبقة العليا الذين يرون أنهم لا يقلون عن هؤلاء السـادة، كما أنه لا يمكن أن يمتلك جوادا فى هذه الفترة سـوى الأثرياء، خاصة إذا كان الجواد من جياد السباق المتميزة.

وقصته باختصار أن ابنا لعمرو بن العاص والى مصر (لا نعرف بالضبط مَن مِن أولاده) قد رأى أن يسابقه، فلما تسابقا تمكن الرجل المصرى من أن يسبق ابن حاكم مصر، حينئذ غضب ابن السادة الجدد، وأمسك بالسوط وانهال على المصرى الفارس قائلا: كيف تسبقنى وأنا ابن الأكرمين؟

كان مـن الممكـن لهذا الرجل المصـرى أن يصمـت، أن يتعلل بأنه يصعب شكوى الحاكم لمن هو أعلى منه، وأن الخليفة لا يمكن أن ينصر مواطنـا عاديـا على حاكم من رجاله. كان من الممكـن أن يتعلل بأنه لو أراد أن يشكو للخليفة مماحدث فلابد له أن يقطع المسافات ويسير الأيام والليـالى حتـى يصل من مصر إلى المدينة، أو يـتردد خوفا من أن يتعمد الحاكم إيذاءه لو تجرأ وشكاه. لكنه لم يفعل كل هذا، بل قرر أن يشكو ابن الأكرمين لسيده مهما كانت المتاعب.

وشـد الرجل الرحال للمدينة، وتوجه إلى المسـجد النبوى حيث مقر الحكـم العمرى، وهنـاك قابل أمير المؤمنين، وبكل الجرأة والشـجاعة قال له:

– يا أمير المؤمنين، عائذ بك من الظلم.

قال عمر: – عُذت معاذا.

قال: سابقت ابن عمرو بن العاص فسبقته، فجعل يضربنى بالسوط ويقول أنا ابن الأكرمين.

فكتب عمر إلى عمرو يأمره بالقدوم عليه ويَقدم بابنه معه. فقدم. فقال عمر:

– أين المصرى؟ خذ السوط فاضرب.

فجعل يضربه بالسوط، ويقول عمر: اضرب ابن الأكرمين.

قال أنس: فضرب، فوالله لقد ضربه ونحن نحب ضربه، فما أقلع عنه حتى تمنينا أنه يرفع عنه.

ثم قال عمر للمصرى: ضع على صِلْعَة عمرو (أو اجلها على صلعة عمرو).

فقال: يا أمير المؤمنين، إنما ابنه الذى ضربنى، وقد اشتفيت منه.

فقال عمر لعمرو: منذ كم تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا؟

قال: يا أمير المؤمنين لم أعلم ولم يأتنى[1]».

ويهمنا فى هذا الحادث أمور: الأول هو تمسك المصرى بحقه مهما كانت الشخصية التى تعتدى عليه.

والثانى: قولة عمر الخالدة «منذ كم تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا؟» فهذا المبدأ يحرم على الحاكم أن يسىء معاملة المواطنين كأنهم عبيد ملكهم بصعوده للحكم. إن هذا المبدأ الرائع هو ما ردده أحمد عرابى

(١) ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب (تحقيق عبد المنعم عامر) القاهرة، ١٩٩٩، ص ٢٢٥ – ٢٢٦.

بعد حوالى ألف ومئتى عام فى مواجهة الخديو توفيق يوم المظاهرة الكبرى حيث قال: «لقد خلقنا الله أحرارا ولم يخلقنا تراثا أو عقارا، ووالله الذى لا إله إلا هو إننا لن نورث ولن نستعبد بعد اليوم».

إنه المبدأ نفسه، يكرره المصرى الحر فى كل العصور فى وجه من يحاول استعباده.

الشىء الثالث الذى يستوقفنا فى هذا الحادث هو مساواة الجميع أمام الإسلام، والقصاص العادل لصاحب الحق من خصمه مهما كان.

الشىء الرابع: ألا يغتر ابن الحاكم، أو أقاربه بسلطة الحاكم، لأنه لن يغنى عنهم شيئا.

والشىء الأخير: الحاكم مسؤول عن أى تجاوز من أبنائه ضد الشعب، ويستحق الحساب عليه، ولذلك طلب عمر من المصرى أن يضع الدرة على صلعة عمرو.

إنه موقف رائع لمصرى تمسك بحقه، وجدير بنا أن نذكره فى كل العصور.

الرجل الذى حفر قناة السويس قبل ديليسيبس

بعد أن فتح المسلمون مصر بفترة وجيزة ضربت بلاد الحجاز مجاعة كبرى، حتى سمى الناس العام كله «عام الرمادة». وفى هذا العام أبطل عمر بن الخطاب حد السرقة لأن الجائع المشرف على الموت لا يمكن أن يحاسبه أحد إذا سرق شيئا يحميه من الموت. كما أخر تحصيل الصدقة.

وحين اشتدت المجاعة لم يجد الخليفة عمر غير عمرو بن العاص والى مصر ليلجأ إليه، فأرسل إليه رسالة استغاثة، يقول له فيها:

«من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى عمرو بن العاص سلام عليك؛ أما بعد؛ فلعمرى يا عمرو ما تبالى إذا شبعت أنت ومن معك، أن أهلك أنا ومن معى؛ فيا غوثاه، ثم يا غوثاه».

هزت الرسالة والى مصر، هل يمكن لعمر بن الخطاب الشديد أن يصرخ هكذا؟ وكتب إليه عمرو الرد من فوره:

«لعبد الله عمر أمير المؤمنين، من عبد الله عمرو بن العاص؛ أما بعد؛ فيالبيك ثم يا لبيك! قد بعثت إليك بعيرٍ أولها عندك وآخرها عندى. والسلام عليك ورحمة الله».

ولعلنا لاحظنا أن أهل المنطقة جميعا إذا نزلت بهم المجاعات لم يجدوا غير مصر ليطلبوا منها المساعدة، وكلنا نعلم كيف لجأ إخوة يوسف عليه السلام إلى مصر حين نزلت بهم المجاعة لطلب العون والمساعدة، وكيف أن مصر لم تتأخر عنهم يومئذ. لذلك لم يكن من الغريب أن يرسل أمير المؤمنين لوالى مصر يطلب النجدة، ولم يكن من الغريب أن يقدم له عمرو النجدة المطلوبة.

أما المعونة التى أرسلها عمرو فكانت عبارة عن قافلة عظيمة من الجمال المحملة بخيرات الله من مصر.

كلف أمير المؤمنين ثلاثة رجال من خيرة الصحابة بتوزيعها على أهل المدينة، هم: عبد الرحمن بن عوف، والزبير بن العوام، وسعد بن أبى وقاص، وقام الرجال الثلاثة بدراسة الموقف، وفى النهاية قرروا أن

يدفعـوا إلى أهـل كل بيت بعيرا بما عليه من الطعـام، وقالوا للناس أن يأكلوا الطعام، وينحروا البعير، فيأكلوا لحمه، ويأتدموا بشحمه، ويحتذوا جلده (يجعلوه أحذية)، وينتفعوا بالوعاء الذى كان فيه الطعام.

وبعد أن انتهت الأزمة الطاحنة بالمعونة المصرية أرسـل أمير المؤمنين يسـتدعى واليه على مصر هو وجماعة من أهل مصر، ولم يكن عمرو بن العاص يستطيع أن يتأخر عن الخليفة الحازم، فأسرع إليه هو ومجموعة من أهل مصر. وفى المدينة قابل الوالى الخليفة. فقال الخليفة لواليه:

«يـا عمرو؛ إن الله قد فتح على المسـلمين مصـر، وهى كثيرة الخير والطعام، وقد عرفت أنه كانت تأتينا سفن فيها تجار من أهل مصر قبل الإسلام، فلما فتحنا مصر، انقطع ذلك الخليج واستد، وتركته التجار، وقـد ألقى فى روعى – لما أحببت من الرفق بأهل الحرمين، والتوسـعة عليهم – أن أحفر خليجا من نيلها حتى يسيل فى البحر (يعنى البحر الأحمـر)، فهو أسـهل لما نريد من حمل الطعـام إلى المدينة ومكة؛ فإن حملـه على الظهر يبعد ولا نبلغ معه مـا نريد؛ فانطلق أنت وأصحابك فتشاوروا فى ذلك حتى يعتدل فيه رأيكم».

ذهـب عمرو إلى أصحابه مـن أهل مصر، وعرض عليهم الأمر، وكان رأى الأغلبيـة أن ما يطلبـه أمير المؤمنين هـو تحويل لخيرات مصر إلى الحجاز، ومالوا إلى الرفض.

وقالوا له بالحرف الواحد: «نتخوف أن يدخل فى هذا ضررٌ على أهل مصر، فنرى أن تعظّم ذلك على أمير المؤمنين، وتقول له: هذا لا يعتدل، ولا نجد إليه سبيلا».

ومضى عمرو بن العاص برأى الجماعة للخليفة، وما إن دخل عليه حتى قرأ عمر فى عينيه ما يريد قوله، وكان عمر معروفا بالفراسة. وكان النبى صلى الله عليه وسلم يقول «اتقوا فراسة المؤمن». لهذا فما إن رأى الخليفة واليه يدخل عليه حتى ضحك وبادره بقوله:

«والذى نفسى بيده لكأنى أنظر إليك يا عمرو وإلى أصحابك حين أخبرتهم بما أمرت به من حفر الخليج، فثقل ذلك عليهم. وقالوا: يدخل فى هذا ضرر على أهل مصر؛ فنرى أن تعظم ذلك على أمير المؤمنين، وتقول له: هذا لا يعتدل، ولا نجد إليه سبيلا».

يا إلهى، هل يمكن أن يقول الخليفة الكلمات نفسها التى حمّلوها لعمرو بن العاص؟ ألجمت المفاجأة عمرو، فلم يعرف وهو داهية العرب ماذا يقول، وبعد أن تمالك نفسه قال:

– صدقت والله يا أمير المؤمنين، فقد كان الأمر على ما ذكرت.

فقال عمر: انطلق يا عمرو وبعزيمة منى حتى تجد فى ذلك ولا يأتى عليك الحول حتى تفرغ منه إن شاء الله تعالى.

انصرف عمرو عائدا إلى مصر حائرا، كيف يحفر خليجا من النيل إلى بحر القلزم (البحر الأحمر)، وهى مسافة تقدر بعشرات الأميال خلال عام؟

أسئلة كثيرة دارت فى رأس عمرو بن العاص وهو يفكر فى تنفيذ أمر أمير المؤمنين. ولم يجد لها جوابا، ومن المؤكد أنه كان يسأل نفسه أيضا عن جدوى هذا الخليج، هل يمكن أن ينعش التجارة بين مصر وبين بلاد البحر الأحمر؟ هل يمكن أن ينقل البضائع التى تأتى من قارة آسيا فى

طريقها إلى أوروبا؟ هل يمكن أن يقوم هذا الخليج بتحويل الأراضى الموجودة على ضفتيه من أراضٍ صحراوية إلى أراض مزروعة؟ هل يمكن أن تنشأ على جانبيه مدن جديدة؟ هل يمكن أن تجد مدينة القلزم من خلال هذا الخليج مصدرا للماء العذب بدلا من أن يهجرها الناس وتكون شبه خاوية؟.

لا شك أنه سأل نفسه أسئلة كثيرة، فعمرو رجل ذكى، وليس هو من ينفذ الأمر دون أن يفكر. المهم أنه حين كان عمرو غارقا فى أسئلته جاءه رجل مسيحى – بخل التاريخ علينا باسمه – وطلب لقاءه، وقابله عمرو ليعرف ماذا يريد، وإذا بالرجل يبلغه أنه كان ثمة خليجا يسير فى هذا المسار من قبل، وأنه يعرف عنه الكثير، وقدم لعمرو إجابة على كل الأسئلة الهندسية التى تشغله:

- من أين يبدأ الخليج؟
- أين يسير؟
- أين ينتهى؟

وعلى ضوء المناقشة بين الوالى وبين الرجل المسيحى الخبير تبلورت الصورة أمام عمرو بن العاص، وبدا له المشروع ميسورا.

لكن ماذا طلب الرجل الخبير الذى قدم التفاصيل اللازمة لهذا المشروع العظيم الذى استمر طويلا طويلا، ولازلنا حتى الآن نعرف أسماء بعض الأماكن من بقاياه، ومنها: «فم الخليج» وهى المنطقة التى كان يبدأ من عندها هذا المشروع المدهش، كما نعرف شارع الخليج المصرى الذى يسير فى مناطق كثيرة من القاهرة مثل السيدة زينب، والحلمية الجديدة،

وباب الخلق، متجها نحو العباسية. ماذا طلب الرجل الذى قدم لمصر قناة بديلة لقناة السويس الحالية فى منتصف القرن السابع الميلادى؟

كل ما طلبه الرجل المسيحى المتواضع هو إعفاؤه وأهل بيته من الجزية، (والجزية هى الضريبة التى كان يدفعها المسيحيون)، ولم يتردد عمرو بن العاص لحظة عن إجابة طلب الرجل، وبدأ إنشاء الخليج. ومنذ هذه اللحظة صارت مصر هى المسؤولة عن الحجاز، واستمرت هذه المسؤولية حتى العصر الحديث، ففى كل عام كانت مصر ترسل الطعام والثياب وكل الاحتياجات إلى مكة والمدينة، حتى اعتبر أصحاب كتب الفضائل (التى تتحدث عن فضائل مصر) أن من فضائل مصر أنها تمير الحرمين (أى تقدم لها الميرة/ القوت)[1].

والحقيقة أن هذا الخليج لم يكن مجرد وسيلة لنقل المساعدات للحرمين بل كان مشروعا عظيما يقوم بدور قناة السويس الحالى، وينقل المياه العذبة من القاهرة للسويس (مثلما نقل ديليسبس فيما بعد المياه العذبة فى ترعة الإسماعيلية لإنشاء مدينة الإسماعيلية)، وتعتمد عليه الزراعة فى مناطق صحراوية (مثلما نحاول الآن نقل مياه النيل عبر ترعة السلام لزراعة سيناء).

لقد كان مشروعا لزيادة الخير للمصريين، لكن البداية فى هذا كانت من خليج أمير المؤمنين، الذى تغير اسمه بعد هذا إلى الخليج المصرى، والذى نشأ على أساس خبرة رجل مصرى مسيحى عظيم.

(١) فتوح مصر والمغرب: ص ٢١٨ – ٢٢٣.

المسيحيون الذين بنوا للمسلمين أول أسطول بحرى

لم يهدأ الصراع العربى الرومى بعد فتح مصر، بل اشتعل، فقد انطلقت الجيوش من مصر لتخلص البلاد المجاورة من العسف الرومى، وترفع فيها شعارات التسامح الدينى، وتعلى كلمة الله أكبر، وأحس الروم أن كل نصر لهؤلاء المسلمين هو هزيمة لهم، لذلك قرروا ألا يستسلموا، وأن يواجهوهم مرة ومرات.

كانت التجربة قد أثبتت للروم أن المواجهات البرية بينهم وبين العرب تنتهى دوما بانتصار العرب. لذلك قرروا أن يلجأوا لميدان لا يعرف عنه العرب شيئا. أعنى المجال البحرى.

وفى العام الخامس والعشرين للهجرة، فى خلافة عثمان بن عفان، أرسل الروم أسطولا جرارا لسواحل البحر المتوسط الشمالية، وتمكنوا من استعادة الإسكندرية، وبعض البلاد المحيطة بها.

وأصدر عثمان قرارا بعودة عمرو بن العاص إلى مصر لمواجهة الروم، وبالفعل تمكن عمرو من هزيمتهم، واستعاد البلاد من أيديهم، ثم أفل عائدا إلى جزيرة العرب ليعود ابن أبى سرح مرة أخرى. لكن المهم أن هذه الأحداث جعلت العرب يدركون ضرورة أن يكون لهم أسطول يواجهون به الروم، وكان صاحب فكرة الأسطول كما يقول البلاذرى فى فتوح البلدان هو معاوية حاكم الشام. لكن كيف يبنى هذا الأسطول والعرب ليسوا ركاب بحار، بل هم أهل صحراء وسفينتهم هى الجمال؟

يذكـر الدكتور عبد العظيـم رمضان فى كتابه «الصـراع بين العرب وأوروبا» أن معاوية حين فكر فى بناء الأسطول وجد أن السبيل لذلك هو الاسـتعانة بالخبرة المصرية، فالمصريون منذ أقدم العصور أصحاب خبرة فى صناعة السـفن وركـوب البحار. وتم الاتفاق بـين معاوية وعبد الله بن أبى سرح والى مصر على أن يرسل معاوية الخشب من الشام، ويقوم المصريون بصناعة السفن فى مصر. وهكذا تمت صناعة أول أسطول عربى عام (٢٨) للهجرة، بفضل الصناع المصريين[١].

قبل هذا كان معاوية قد كتب للخليفة عمر بن الخطاب لكنه رفض، فلما تولى عثمان بن عفان أرسل يستأذنه فى ذلك، فكتب له عثمان «فإن ركبـت ومعك امرأتك فاركبه مأذونا لك وإلا فـلا»، ولم يتردد معاوية، فركب البحر وصحب معه زوجته فاختة بنت قرظة. ولهذا الشـرط فى رأيى علة، فالعرب فى الجاهلية تعودوا أن يصحبوا نساءهم فى الحروب لكى يقاتلوا بشـدة، لأن الهزيمة معناها أسر النساء، والوقوع فى العار. وإذا اصطحب معاوية ورجاله نسـاءهم معهم فمن المؤكد أنهم لن يدخروا وسـعا فى تحقيق النصر. ويقول البلاذرى إن معاوية لم يكن وحده الذى صحب زوجته، بـل اصطحب عبادة بن الصامت أيضا زوجته أم حَرام بنت مِلحان، التى توفيت ودفنت فى قبرص[٢].

(١) د. عبـد العظيـم رمضـان: الصراع بـين العـرب وأوروبا، القاهـرة، ١٩٨٣، ص ٥٩ – ٦٠.

(٢) البـلاذرى: فتوح البلدان (تحقيق د. صلاح الدين المنجد) القاهرة، ١٩٥٧، ج١ ص ١٨١.

اتفق معاوية مع والى مصر على أن يأتى إليه بأسطوله، فذهب إليه، وحين التقيا تولى معاوية القيادة، ليدخل التاريخ باعتباره أول قائد بحرى فى التاريخ الإسلامى. لكن ما هى أول معركة خاضها العرب؟

كانت جزيرة قبرص تقوم بدور المحطة التى يلجأ إليها الروم عند الهجوم على البلاد التى فتحها العرب، ويتخذون منها مركزًا للتموين، وفرض السيطرة على شرق المتوسط. وقرر معاوية أن يكون فتح قبرص هو البداية.

اتجه الأسطول إلى قبرص، وهاجم الجزيرة، لكن حاكم الجزيرة عرض على العرب الصلح، وأن يدفع لهم سبعة آلاف ومائتى دينار سنويا، فطلب معاوية ألا يعاون القبارصة الروم على العرب، واتفقوا على ذلك، وعاد الأسطول إلى قواعده دون أن يفتح قبرص.

لم ينته الأمر عند هذا الحد، فقد احتدم الصراع بين الطرفين مرة أخرى، ففى عام ٣٢ للهجرة أعان أهل قبرص الروم على العرب، وأمدوهم بالسفن، فقرر معاوية أن يحسم هذا الصراع الذى لا يريد أن ينتهى، وبالفعل تحرك عام ٣٤ للهجرة بأسطول يبلغ خمسمائة سفينة فى رواية البلاذرى، ويقل إلى مائتين فقط فى «فتوح مصر والمغرب» لابن عبد الحكم، ليخوض المعركة التى اشتهرت فى التاريخ باسم «ذات الصوارى» لكثرة السفن التى اشتركت فيها. إذ وصل عدد سفن الروم فى هذه المعركة ألف سفينة.

كان الأسطول الذى خرج العرب به للقتال صناعة مصرية، ولم يقف دور مسيحيى مصر عند حد بناء الأسطول، بل تعدى هذا إلى ما هو أهم، فالعرب لا يجيدون فنون البحر، ولا يعرفون شيئا عن الملاحة، والمصريون أقدر منهم فى هذا المجال، لذلك كان لابد من الاستعانة بخبرة أهل مصر من المسيحيين، ولم يتأخر مسيحيو مصر عن نصرة إخوانهم المسلمين، لأن انكسار المسلمين كان معناه عودة الرومان مرة أخرى، وتكرار معاناة المصريين.

وخرج البحارة المسيحيون مع إخوانهم المسلمين، تولوا قيادة السفن الحربية بما لهم من خبرة وعلم، حتى وصلوا إلى موقع المعركة. ولم تلبث الحرب أن اشتعلت، وكان على رأس الروم الإمبراطور نفسه (هرقل)، ويقول ابن عبد الحكم إن المسلمين قسموا قواتهم قسمين، الأول فى البر، والآخر فى البحر، وبدأ المسلمون القتال بالرمى من بعيد بالأسهم والرماح، لكنها لم تلبث أن نفدت، فلجأ المسلمون للحجارة، لكن الحجارة أيضا نفدت، وعندئذ ألقى المسلمون خطاطيفهم على سفن الروم فسحبوها إليهم، وجعلوا منها أرضا للقتال، حينئذ قال هرقل «غُلِبت الروم» وبالفعل هزم العرب الروم، وفر هرقل ناجيا بنفسه[1].

وعاد الأسطول المنتصر، لكن التاريخ لم ينس أبدا أن الأسطول الإسلامى كان من صنع المسيحيين من أهل مصر، وأن الذين تولوا أمور الملاحة هم المسيحيون من أهل مصر.

(١) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها (تحقيق شارلز توري) القاهرة، ١٩٩١، ص ١٩٠.

المهندس المسيحى الذى بنى جامع ابن طولون

هذا مهندس مسيحى مبدع، اسمه سعيد بن كاتب الفرغانى، عاش فى عصر الدولة الطولونية، ووصل صيته لأحمد بن طولون فاتخذه مهندسا لمشروعاته الكبرى مثل مقياس النيل، والبيمارستان (المستشفى) وغيرهما، ثم قرر ابن طولون أن ينشىء عينا يستقى منها الفقراء فكلفه بحفرها وبناء سور حولها فجاءت العين تحفة معمارية، وجاء ابن طولون لافتتاحها، وإذا بالجواد يدوس فى كومة من الجير أهمل العاملون رفعها فيتململ ويشب ويقفز فيوقع أحمد بن طولون أرضا، وربما لا يدرك المعاصرون خطورة وقوع الفارس من على ظهر فرسه، لكن هذا كان فى حينه من أكبر الحوادث التى تؤدى بصاحبها إلى الموت، وقد مات رجال مشاهير بسبب وقوعهم من على ظهور جيادهم، ومن هؤلاء مثلا والد صلاح الدين الأيوبى. لذلك تصور ابن طولون أن ما حدث مدبر، وأمر بالقبض على هذا المهندس، وألقاه فى السجن.

بعد فترة أراد ابن طولون أن يبنى مسجده المعروف، فقد شكى له أهل مصر من ضيق المسجد يوم الجمعة بالمصلين، وعزم على أن يبنى مسجدا جامعا فوق جبل يشكر يتسع للناس والجند جميعا، وكان ذلك عام ثلاث وستين ومائتين للهجرة، وحين شرح للمهندسين مواصفات الجامع الذى يريده قالوا له إن المسجد بهذه المواصفات يلزمه ثلاثمائة عمود، وكان الحصول على الأعمدة فى هذا العصر مشكلة، ويضطر بناة المساجد كى يحصلوا عليها إلى البحث عن المساجد والكنائس والقصور الخربة فى المدن

والأرياف ليأخذوا ما بها من أعمدة، لذلك تضايق ابن طولون فكيف له أن يدبر هذا العدد الكبير المطلوب من الأعمدة؟

وصل الأمر للمهندس سعيد بن كاتب الفرغانى فى سجنه، وفكر فى حل للمشكلة، وهداه تفكيره إلى طريقة يبنى بها المسجد كما يريد أحمد بن طولون دون هذا العدد الهائل من الأعمدة. لم يقل لنفسه: مالى وما للمساجد؟ ولو قال ذلك لكان له العذر فهو مسيحى، ولم يقل لنفسه: لم أبنى لهذا الرجل الذى حبسنى ما يريد؟ ولو فعل هذا أيضا لكان معذورًا، لكنه لم يقل شيئا من هذا، وقرر أن يقدم علمه وفنه لحاكم بلده.

والحقيقة أن ابن طولون كان يحب المسيحيين ويحبونه، واشتهر عنه ذهابه لأحد الأديرة من آن لآخر لقضاء الوقت بها، والمهندس المسيحى سعيد بن كاتب لم ينس هذا برغم السجن، ولذا كتب لابن طولون يقول: أنا أبنى المسجد للأمير، أيده الله، كما يحب ويختار. بلا عمود إلا عمودى القبلة، وحينئذ نسى ابن طولون ما كان من مهندسه القديم وأرسل يستدعيه، فلما حضر قال له:

– ما تقول فى بناء الجامع؟

– أنا أصوره للأمير حتى يراه عيانا بلا عمود إلا عمودى القبلة.

وكانت النماذج الهندسية (الماكيتات) فى هذا العصر تصنع من الجلد، فأمر ابن طولون بإحضار ما يطلبه المهندس من الجلد ليجسد له صورة المسجد كما يعتزم أن يبنيه، فلما انتهى المهندس من صنع النموذج المجسد أعجب أحمد بن طولون، فأمر بالإفراج عنه، ووفر له كل

ما طلب من مواد البناء، والفعلة، والصناع المهرة، ودبر له الأموال الجزيلة حتى بلغت مائة وعشرين ألف دينار، وبدأ البناء عام ثلاثة وستين ومائتين، وكان ابن طولون يذهب من حين لآخر ليتفقده بنفسه فيرى همة المهندس وقدرته على قيادة العاملين معه، وربما تدخل بنفسه فى الرفق بهم، فقد لاحظ مثلا أن العمال فى شهر رمضان يعملون عددا كبيرا من الساعات فقال: «ومتى يعدون إفطارهم؟» وأمر أن ينصرفوا بعد العصر طوال شهر رمضان.

كان موضع المسجد – كما ذكرنا من قبل – جبلا يسمى جبل يشكر، واستغل المهندس الذكى خصائص الموقع، فراح يقتطع الحجارة من الجبل ويسويها ويبنى بها، ولم ينس أن ينشىء لأحمد بن طولون دارا ينزل فيها إذا حضر للصلاة، ويفرشها ويعلق فيها الستائر، ولم ينس أن يبنى له مقصورة يصلى فيها على عادة حكام تلك الأيام، وجعل له مئذنة فريدة فى نوعها بين المآذن المصرية جميعها، فهى على شكل حلزونى لم تعرفه مصر من قبل. كما جعل فيه مستشفى صغيرا، ومخزنا للأدوية. وجعل على المحراب منطقة من العنبر المعجون بالمسك لتفوح على المصلين. كما أقام فى صحنه قبة على عشرة أعمدة من رخام أبيض مفروشة بالرخام الملون، وفى وسطها نافورة يفور منها الماء يطلع من قصعة رخام أبيض، قطعة واحدة، دورها أربعة أذرع فى مثلها، تفور بالماء ليلا ونهارا برسم الوضوء، كما غطى الصحن بشبكة لأجل العصافير.

وبعد أن انتهى من البناء بيّضه، وفرش فيه الحصير، وعلق القناديل التـى بلغ عددها كما يقـول ابن إياس عشـرة آلاف قنديل من الزجاج المذهب، على ما ذكره ابن إياس، ثم دعا ابن طولون لافتتاحه. فاختار ابـن طولون يـوم جمعة لتكون صـلاة الجمعة هى أول صـلاة تقام فى مسجده، ولما حضر دخل الدار المعدة له، فتوضأ، وأبدل ثيابه، وتبخر، ثم خرج إلى المقصورة وصلـى، وبعد الصلاة تصدق بصدقات جليلة وأمر بالطعام لمن حضر من الناس فكان هذا اليوم من الأيام المعدودة.

وبعـد الصلاة وقف سـعيد بن كاتب لابن طولـون وصاح: «يا أحمد يا ابن طولون، يا أمير، الأمان والجائزة» فقال له ابن طولون: «قد أمنك الله ولك الجائزة» وأمر له بعشرة آلاف دينار وأجرى عليه الرزق الواسع إلى أن مـات. ولا يـزال الجامع موجـودا حتى الآن شـاهدا على عمق التعاون بين المسلمين والمسيحيين فى مصر منذ مئات السنين[1].

إن هذه النماذج المسيحية المضيئة فى تاريخ مصر الإسلامية تدل دلالة واضحة على دور المسـيحيين فى تحقيق الوحدة المصرية بين المسـلمين والمسيحيين منذ دخل الإسلام مصر. لكن ماذا كان دور المسلمين لتحقيق هذه الوحدة؟ هذا هو ما سنراه فى الفصل القادم.

❑❑❑

(١) البلوى: سـيرة أحمدبن طولون (تحقيق محمد كرد على) القاهرة، بدون تاريخ، ص ١٨١ – ١٨٣.